الخدمات العامة لسلاطين بني حفص في إفريقية (٦٢٧- ٩٨٢هـ/١٢٢٨-١٥٧٣م)

أ.د. منى بنت حسين آل سهلان القحطاني (*)

المستخلص

تناولت هذه الدراسة الخدمات العامة التي قام بها سلاطين بنو حفص حكام أفريقية لرعايهم، والتي شملت مجالات متنوعة ذات أهمية في حياة الأفراد، والتي من خلالها يتحقق التطور والرخاء الاقتصادي، والازدهار الحضاري، ونشر الأمن، ومحاربة الفساد، والظلم بشتى صوره.

وتجلت تلك الخدمات في الجانب العلمي، والجانب العمراني، والجانب الاقتصادي، وجانب الإدارة الداخلية للدولة، والخدمات العامة.

والهدف من هذه الدراسة هو تسليط الضوء على هذه الخدمات، وجهود سلاطين بنو حفص من أجل تحقيقها، وكيفية القضاء على المشاكل والصعوبات التي واجهتها الدولة في هذه المجالات.

Abstract

This study dealt with the general services undertaken by the Sultans of Ben Hafs African rulers to their carers, which included various fields of importance in the lives of individuals, through which economic development and prosperity, cultural prosperity, the spread of security, the fight against corruption and injustice in all its forms.

These services were manifested in the scientific, the urban, the economic, the internal administration and the public services.

The aim of this study is to shed light on these services, the efforts of the Sultans of Beni Hafs to achieve them, and how to eliminate the problems and difficulties faced by the State in these areas.

(*) أستاذ التاريخ الإسلامي- قسم التاريخ كلية الآداب- جامعة الأميرة نورة بنت عبدالرحمن- السعودية

التمهيد

بداية نعطي لمحة إجمالية عن دولة بنو حفص لضرورة تقتضيها منهجية البحث في فهم الخلفية التاريخية التي قامت عليها تلك الدولة، ولما له من أثر في فهم طبيعة الخدمات والجهود المبذولة التي قدمها سلاطين بنو حفص[١].

قامت دولة بنو حفص على أنقاض دولة الموحدين في بادئ الأمر، حيث لم يأنف بنو حفص وهم ولاة الموحدين والمقربين إليهم من الظهور عليهم، والاستقلال بما تحت أيديهم فأعلن أبو زكريا بن الشيخ عبدالواحد بن أبي حفص وإلى الموحدين على المغرب الأولى انفصاله عنهم واستقلاله بما تحت يديه سنة ٦٢٥هـ/ ١٢٢٧م، فكان بذلك بداية ظهور دولة بنو حفص في بلاد المغرب الأولى، والتي استقرت ما يقارب ثلاثة قرون ونصف[٢].

وقد حرص الحفصيون منذ إعلان انفصالهم عن جسم الدولة الموحدية على التمسك بتعاليم ابن تومرت، وقد تمكن أبو زكريا من تثبيت دعائم دولته، وتشكيل إمارة له في تونس، التي اتخذها بنو حفص مركزاً لسلطانهم.

---

(١) ينتسب الحفصيون إلى الشيخ أبي حفص يحيى بن عمر الهنتاتي، من قبيلة هنتاته، والحفصيون فرع من دولة بني عبدالمؤمن، موطنهم جبال درن القريبة من مراكش، ويعتبر الشيخ أبو حفص يحيى بن عمر أحد رجالات الدولة الموحدية، وكان يؤخذ برأيه، وله احترام وتقدير من قبل زعيم الموحدين الذي أكرمه، وأكرم أولاده من بعده، وأسند لهم المناصب والإدارة في الأندلس وأفريقية، وعندما تولى الخلافة الموحدية محمد الناصر بن المنصور أسند إلى أبي محمد عبدالله بن عبدالواحد بن أبي حفص أمر أفريقية، ومن هنا ورث الحفصيون سلطنة تونس وإفريقية، وقد تم الاستقلال الرسيم عن الدولة الموحدية على يد أبي زكريا يحيى بن عبدالواحد الحفصي سنة ٦٢٧هـ/ ١٢٢٩م. الزركشي، أبو عبدالله محمد بن إبراهيم اللؤلوي (ت: ٩٢٥ه). **تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية** (تحقيق: محمد مأضور)، المكتبة العتيقة، تونس، ط٢، ١٩٦٦م ، ص٢٦-٢٧؛ التجاني، أبو محمد عبدالله بن محمد بن إبراهيم (ت: ٧٠٨ه). **رحلة التجاني**، (تحقيق: حسين حسني عبدالوهاب)، الدار العربية، تونس، د.ط،١٩٨١م، ص٣٥؛ ابن الشماع، أبو عبدالله محمد بن أحمد (ت: ق ٩ه). **الأدلة البينية النوارنية في مفاخر الدولة الحفصية** (تحقيق: الطاهر محمد المعموري)، الدار العربية للكتاب، د.ط، ١٩٨٤م ، ص٢٥ -٢٦؛ المطوي، محمد العمروسي، **السلطنة الحفصية تاريخها السياسي ودورها في المغرب الإسلامي**، دار الغرب الإسلامي، بيروت، د.ط، ١٩٨٦م ، ص٣٠ -٣١.

(٢) السحيباني، حمد بن صالح، **جهاد دولة بني مرين ضد النصارى بالأندلس**، منشورات الجمعية التاريخية، الرياض، ٢٠١١م، ص٨٩؛ سالم، السيد عبدالعزيز، **المغرب الكبير**، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت،١٩٨١م، ص٨٧٦.

وقد اعتمد بنو حفص في سياسة حكمهم للبلاد على النظام الوراثي، وهو مسلك يقين الأفراد من الأسرة الحاكمة[١].

وقد تميز أبو زكريا بالحكمة والسياسة في ضبط الأمور حتى وفاته سنة ٦٤٧هـ/ ١٢٤٩م، فتولى بعده ابنه عبدالله محمد المستنصر بالله الذي أعلن نفسه أمير للمؤمنين بعد سقوط خلافة بغداد العباسية على يد التتار سنة ٦٥٦هـ/ ١٢٥٨م، وقد بايعه شريف مكة بالخلافة[٢].

وبذلك ظهرت خلافة قوية في الشمال الإفريقي عاصمتها تونس، وقد استطاع المستنصر بالله أبو عبدالله محمد بن أبي زكريا الحفصي من تطوير الدولة، والنهوض بها وأن يجعلها مقصداً لعلماء والأدباء وأن تتبوأ مكانة رفيعة في وقته، وازدهرت الأحوال في عهده أوج ازدهارها، حتى كانت وفاته سنة ٦٧٥هـ/ ١٢٧٧م[٣].

تولى الخلافة بعده عدد من السلاطين الحفصيون الذين حكموا إفريقية خلال النصف الثاني من القرن السابع الهجري[٤]، شهدت خلالها فترة مزدهرة ونماء حضاري ورخاء اقتصادي، وازدهار علمي ماثل للعيان، وعلى الجانب السياسي امتد نفوذ بنو حفص في إقليم تونس، وطرابلس الغرب، ومناطق من المغرب الأوسط، وقد لخص عدد من الباحثين أسباب ازدهار الحضارة الحفصية في إفريقية كالتالي:

- أن بنو حفص كانوا متأثرين بدرجة كبيرة بسياسة الموحدين في المغرب والأندلس مما جعلهم ينقلون عنهم بعض الخدمات التي قاموا بها إلى حدود سلطتهم[٥].

---

(١) ابن أبي الدينار، أبو عبدالله محمد بن أبي القاسم الرعيني القيرواني (ت: ١٦٩٠م). **المؤنس في أخبار إفريقية وتونس**، مطبعة الدولة التونسية، ١٣٨٦هـ، ص١٦٣-١٦٤.

(٢) ابن القنفذ، أبو العباس أحمد بن حسين بن علي (ت:٨١٠ه). **الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية**، (تحقيق: محمد الشاذلي، عبدالمجيد التركي)، تونس، د.ط، ١٩٦٨م ، ص١١٣.

(٣) ابن خلدون، عبدالرحمن محمد الحضرمي (ت: ٨٠٨ه). **مقدمة ابن خلدون (ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر)**، (تحقيق: خليل شحادة ، وسهيل زكار) دار الفكر، لبنان، ٢٠٠٠م، ص٤٠٠؛ ابن القنفذ، الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية، ص٢٦-٢٨-٢٩؛ المطوي، السلطنة الحفصية تاريخها السياسي ودورها في المغرب الإسلامي، ص٢١٥-٢١٨.

(٤) انظر: ملحق رقم (١).

(٥) برنشفيك، روبار، **تاريخ إفريقية في العهد الحفصي من القرن ١٣ إلى نهاية القرن ١٥م**، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط١، ١٩٨٨م، ص٣٠-٣٥؛ الخفاجي، كاظم عبد نتيش،

- انتقال الحضارة الأندلسية إليها عندما فتح سلاطين بنو حفص أبواب الهجرة إلى إفريقية حيث وفد عليها العلماء والأدباء مما ساهم بشكل كبير في ازدهار البلاط الحفصي حضارياً وفكرياً وعلمياً[١].
- تأثر إفريقية بالجانب الأوروبي الجنوبي، وذلك من خلال اتصالها بإيطاليا، أو تأثيرات الهجمات والحروب الصليبية[٢].
- يتميز موقع إفريقية بوجود عدد من المراكز التجارية الهامة التي ساهمت في تشيط حركة التجارة والملاحة البرية والبحرية، وكذلك طرق الحج للمسافرين المتجهين لبلاد الحجاز لأداء فريضة الحج[٣].

خدماتهم في الجانب العلمي:

شهدت دولة بنو حفص تطوراً ملحوظاً في الجانب العلمي بفضل جهود سلاطينها، وكانت بداية هذا التوهج عندما فتح سلاطين بنو حفص أبواب بلادهم للهجرة الأندلسية، فبلغ التأثير الأندلسي أوجه في عهد السلطان أبي عبدالله المستنصر بالله الذي تولى السلطة بعد أبيه سنة ٦٤٧هـ/ ١٢٩٠م، فتوافدت على بلاطه أفواج من العلماء والفقهاء والمحدثين والأدباء والذين أثروا الحياة العلمية بمؤلفاتهم ونتاجهم الفكري والعلمي وتمازجوا مع سكان أفريقية، فأصبحت الحضارة في تونس خليط بين الحضارة الأندلسية الوافدة والحضارة الأفريقية، وكان لسلاطين بنو حفص جهود عظيمة في هذا الازدهار الذي لحق ببلادهم، تمثل ذلك في تشجيع العلماء ورعاية الأدباء، وإقامة المجالس العلمية في بلاط السلطان، وتوفير الاستقرار، وبناء المنشآت العلمية، ويشير لنا ابن أبي الدينار الحالة العلمية في عهد السلطان أبي زكريا الأول فيقول: "قد جمعت دولته من رؤساء العلماء والشعراء، وأهل الصلاح، ما لم يجتمع لغيره"[٤].

وأخرون، الخدمات العامة لخلفاء الدولة الموحدية في المغرب والأندلس، **مجلة أبحاث (العلوم الإنسانية)**، مج٣٩، ع٣، ٢٠١٤م، ص١٩٣-١٩٤.

(١) ابن القنفذ، الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية، ص١٢٤؛ المطوي، السلطنة الحفصية تاريخها السياسي ودورها في المغرب الإسلامي، ص٣١٣-٣١٤.

(٢) برنشفيك، تاريخ إفريقية في العهد الحفصي من القرن ١٣ إلى نهاية القرن ١٥م، ص٥٧؛ المطوي، السلطنة الحفصية تاريخها السياسي ودورها في المغرب الإسلامي، ص١٩٧-١٩٨.

(٣) ابن الوزان الفارسي، الحسن بن محمد (ت: ٩٥٦٥). **وصف إفريقيا**، (تحقيق: محمد حجي، ومحمد الأخضر)، دار الغرب الإسلامي، لبنان، ١٩٨٣م ، ص٨٠.

(٤) ابن أبي الدينار، المؤنس في أخبار إفريقية وتونس، ص١٢٧.

وكذلك إنشاؤهم للمكتبات العلمية الزاخرة بالكتب المتنوعة، كما فتح الأمراء مكتبات قصورهم لطلاب العلم فنجد السلطان الحفصي أبو زكريا يجمع كافة مكتبة الصنهاجين والأغالبة، وأظهر المكتبة التونسية بالقصبة وزودها بآلاف الكتب حتى بلغت في عهده ٣٦ ألف مجلد في شتى العلوم والفنون(١).

كما لم يقتصر إنشاء المدارس على السلاطين، بل نجد أن للمرأة مشاركة قوية في ذلك حيث أنشئت الأميرة عطف زوجة الأمير الحفصي أبو زكريا مدرسة التوفيقية بمالها الخاص(٢).

وقد تعددت مصادر التعلم في إفريقية في عهد الحفصيون، والتي كانت لهم جهود عظيمة في إنشاءها والاعتناء بها ومنها:

ا – المساجد:

تعتبر المساجد هي الأساس الذي قامت عليها الشريعة الإسلامية، وهي الجامعة العلمية التي خرجت العلماء والفقهاء والمفكرين في شتى المجالات، فلم يكن المسجد مكان للعبادة فحسب، بل كان مدرسة يتعلم فيها المسلمون شتى أنواع المعرفة والعلوم الدينية والفكرية في مختلف فروع العلم(٣)، فكان اهتمام السلاطين بالمساجد نابع من إيمانهم الشديد بالعلم وحبهم له، وبالتالي نجد أن مهام المسجد لم تعد مقتصرة على العبادة فحسب، بل أيضاً للتدريس والإفتاء والقضاء والفصل في الخصومات بين الناس، وإقامة حلقات تحفيظ القرآن الكريم وغيرها من المجالس العلمية التي تعقد فيه.

من أشهر المساجد جامع القصبة الذي أسسه الأمير الحفصي أبو زكريا، وكان قد شرع في بناء هذا الجامع سنة ٦٢٩هـ/ ١٢٣١م، وانتهى منه سنة ٦٣٣هـ/ ١٢٣٥م، وكان أول من صدع فيه بالأذان عندما انتهت صومعته أبا زكريا نفسه، وذلك في شهر رمضان من سنة ٦٣٠هـ/ ١٢٣٢م، وكذلك جامع التوفيق والذي

(١) ابن القنفذ، الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية، ص١١٣؛ العامري، محمد الهادي ، **تاريخ المغرب العربي في سبعة قرون بين الازدهار والذبول من القرن السابع الهجري إلى ختام القرن الثالث عشر**، الشركة التونسية للتوزيع والنشر، د.ط، د.ت ، ص١٦٤.

(٢) ابن القنفذ، الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية، ص٣٢٢؛ الزركشي، تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية، ص١٢٨.

(٣) السباعي، مصطفى ، **من روائع حضارتنا**، دار السلام، القاهرة، ٢٠٠٥م ، ص١٠٠.

يعرف بجامع الحمراء، والذي بنته الأميرة الحفصية عطف زوجة مؤسس الدولة أبو زكريا في أواسط القرن السابع الهجري[١].

يتضح لنا أن عهد أبي حفص عمر أبو زكريا كان عهد ازدهار علمي حيث جعل من المساجد أماكن لطلب العلم فقد بنى في المسجد مدرسة، وجلب لها الرخام الحسن، ورتب مساكن للطلبة، وأوقف لهم حبساً ليستفيدا منه، ثم جاء ابنه أبو البقاء، وجلب العديد من الكتب المتنوعة[٢].

٢ – المدارس:

أخذ إنشاء المدارس حيزاً من رعاية واهتمام سلاطين بنو حفص، ويشير عدد من المؤرخين والباحثين إلى أن السلطان الحفصي كان يجتمع مع الناس، في مكان يسمي المدرسة، ليدير شؤون بلاده في هذا المكان مع كبار موظفيه في الدولة، ثم يختم المجلس بمجالسة لطيفة مع العلماء والأدباء، وكثير ما كانت تدور بينهم محاورات شعرية وأدبية[٣].

وكان بداية ظهور المدارس العلمية في إفريقية في أوائل القرن السابع الهجري، وكانت أولى المدارس هي مدرسة الشماعية ، في العاصمة الحفصية تونس. وقد أشار إليها الرحالة ابن رشيد وزارها خلال رحلته[٤]، ويؤكد على ذلك الرحالة البلوي[٥]، حيث زارها والتقى فيها بعدد من طلاب العلم فقال: "اجتمع مع

---

(١) ابن السراج، محمد بن محمد الأندلسي (ت: ٧٣٠ه). **الحلل السندسية في الأخبار التونسية**، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٨٤م ، ص١٤٦؛ زبيس، سليمان مصطفى. **مدينة تونس العتيقة**، المعهد القومي للآثار والفنون، تونس، ١٩٨١م ، ص٢١-٢٣.

(٢) ابن القنفذ، الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية، ص١٥٥-١٥٦.

(٣) العمري، أحمد بن يحيى بن فضل الله (ت:١٣٤٩ه). **مسالك الأبصار في ممالك الأمصار**، (تحقيق: حمزة أحمد عباس)، دار المكتبة الوطنية، أبو ظبي، ٢٠٠٣م ، ص١٥٠؛ برنشفيك، تاريخ إفريقية في العهد الحفصي من القرن ١٣ إلى نهاية القرن ١٥م، ص٥٧.

(٤) هو محمد بن عمر بن محمد الفهري السبتي، ويعرف بابن رشيد، من أهل سبته، ولد سنة ٦٥٧هـ/ ١٢٥٩م، له رحلة مشهورة سميت باسمه زار فيها فاس وتونس ومصر ثم الشام ونزل الحجاز، أخذ من العلماء والفقهاء والمحدثين، له العديد من المؤلفات، لعل أشهرها كتاب رحلته "ملئ العيبة فيما جمع بطول الغيبة في الوجهتين الكريمتين إلى مكة وطيبة"، توفي سنة ٧٢١هـ/ ١٣٢١م في مدينة فاس. الصفدي، صلاح الدين خليل بن أيبك (ت:٧٦٤ه). **الوافي بالوفيات**، (تحقيق: محمد بن عبيدالله)، المعهد الألماني للأبحاث الشرعية، بيروت، ٢٠٠٨م ، ص٢٨٤؛ ابن الخطيب، لسان الدين بن الخطيب (ت: ٧٧٦ه). **الإحاطة في أخبار غرناطة**، (تحقيق: محمد عبدالله عنان)، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط٣، د.ت، ص١٣٥؛ السيوطي، جلال الدين عبدالرحمن (ت: ٩١١ه). **بغية الوعاة في طبقات اللغوين والنجاة**، (تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم)، دار الفكر، د.ط، ١٩٧٩م ، ص١٩٩.

(٥) هو الإمام القاضي خالد بن عيسى بن أحمد بن خالد البلوي، من أهل قتنورية من حصون وادي المنصورة يكنى بأبي البقاء، ولد في قتنورية تقريباً سنة ٧١٣هـ/ ١٣١٤م، ينتسب

العلماء والطلبة والمدرسين، وأقبلوا يطالبونني بما جلبت من الفوائد"[١]، وهذا النص يدلنا على اهتمام أهل إفريقية بالعلم والحرص على الأخذ والتزود به من كل رحالة وعالم زائر لبلادهم.

كما رصد بعض الرحالة الزائرين لأفريقية خلال القرن السابع والثامن الهجرين في كتاباتهم ما شاهدوه ووقفوا عليه من إنشاء للمدارس واهتمام سلاطين بنو حفص على بناءها في شتى مناطق نفوذ الدولة الحفصية ومنها مدينة طرابلس[٢].

كما وجد في إفريقية مدارس أقل شهرة من غيرها وهي خاصة بتعليم الفتيات وإدارة المنزل وتعليمهن الحرف اليدوية والصناعات المختلفة مثل الغزل والخياطة والتطريز، فبالتالي نلاحظ أن اهتمام السلاطين لم يقتصر على الذكور، إنما شمل المرأة الأفريقية وحرصهم على تعليمها وتثقيفها ومشاركتها في تأسيس الدولة، ومنها المدرسة التوفيقية والتي أنشأتها الأميرة عطف زوجة المؤسس الأمير أبو زكريا، وتحولت بعد ذلك إلى مدرسة للبنات خاصة بالتعليم المهني والتدريب على الحرف والصناعات[٣]، وأيضاً المدرسة العتيقة والتي أنشأتها الأميرة الحفصية فاطمة أخت أبي بكر بن أبي زكريا الملقب بالمتوكل على الله، وذلك سنة ٧٤٢هـ/ ١٣٤٢م[٤].

البلوي لأسرة ذات تربية دينية وعلمية، حاب البلدان والتقى بالعلماء والأدباء والفقهاء وأخذ منهم، له العديد من المؤلفات لعل أهمها رحلته التي سماها "تاج المفرق في تحلية علماء المشرق"، وغيرها من المؤلفات، كانت رحلته لطلب العلم فزار بلاد الحجاز سنة ٧٣٦هـ/ ١٣٣٦م، توفي سنة ٧٨٠هـ/ ١٣٧٩م. البلوي، خالد بن عيسى (ت: ٧٨٠ه). **تاج المفرق في تحلية علماء المشرق**، (تحقيق: الحسن محمد السائح)، صندوق إحياء التراث الإسلامي، المغرب، د.ط، د.ت، ص٨١-١٧٥-١١٣-٢٠٦-٢٢٩؛ ابن القاضي، أحمد المكناسي (ت: ١٠٢٥ه). **درة الجمال في أسماء الرجال**، دار التراث، القاهرة، ط٧، د.ت ، ص٢٦٢-٢٦٣؛ نواب، عواطف محمد يوسف، **الرحلات المغربية والأندلسية مصدر من مصادر تاريخ الحجاز في القرنين السابع والثامن الهجريين**، مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض، ١٩٩٦م، ص١٣٧.

(١) البلوي، تاج المفرق في تحلية علماء المشرق، ص٩٣.

(٢) التجاني، رحلة التجاني، ص٢٥١.

(٣) زبيس، مدينة تونس العتيقة، ص٢٩؛ العبادي، أحمد مختار، **دراسات في تاريخ المغرب والأندلس**، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، د.ط، د.ت ، ص١٣١؛ المسعودي، جميلة مبطي، **المظاهر الحضارية في عصر دولة بني حفص منذ قيامها (سنة ٦٢١هـ وحتى سنة ٨٩٣هـ)**، رسالة ماجستير، غير منشورة، قسم الدراسات العليا التاريخية والحضارية، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، جامعة أم القرى، ٢٠٠٠م، ص١٦٧.

(٤) زبيس، مدينة تونس العتيقة، ص٢٩.

٣ – المكتبات:

انتشرت المكتبات في إفريقية في عهد سلاطين بنو حفص حيث أسسوا مكتبة ضخمة ضمت آلاف الكتب العلمية القيمة، وهي تحت إدارة وإشراف الدولة وعينوا عليها كبار رجال الدولة ليكونوا محاسبين ومراقبين عليها(١).

ومن المواقف الدالة على اهتمام سلاطين بنو حفص بهذه المكتبة ومتابعتهم الدقيقة للعمل فيها، والنظر في أمر الكتب الواردة إليها، ما ذكره العبدري في كتابه من أن السلطان الحفصي أبو زكريا يحيى الواثق، عندما تولى السلطة سنة ٦٧٥هـ/ ١٢٧٧م أمر أبو علي الحسن بن موسى بن معمر الهواري الطرابلسي بالنظر في خزانة الكتب، وسئل عنها وهو قد عزل اثناء سلطة والدة محمد المنتصر بالله، مما أدى إلى اختلاف عدد الكتب بها بعد حصرها، من ثلاثين ألف سفر إلى عشرين ألف سفر، فسأل الواثق موجب ذللك فقال "المطر وأيدي البشر"(٢).

كما نجد أن قرية التأليف والتدوين منشرة في عهد سلاطين بنو حفص، مما ساعد على ازدهار المكتبات بالكتب والمؤلفات العلمية، حيث كانوا حريصين على استقبال الكتب العلمية الثمينة والمؤلفات الجديدة، وتزويد مكتباتهم السلطانية بها، منها كتاب "القدح المعلي في التاريخ المحلي" لابن سعيد، والذي قدمه للسلطان أبو زكريا يحيى الواثق في تونس، وغيرها من الكتب(٣)، وبالتالي نجد أن تونس عرفت خزانة الكتب لحفظ الكتب والمؤلفات العلمية والأدبية سواء التي تم تأليفها في إفريقية أو تم جلبها من الخارج(٤).

٤ – المجالس الأدبية والزوايا والأربطة:

حرص السلاطين الحفصيون على تفعيل المجالس العلمية والأدبية في قصورهم وتقريب العلماء ومجالستهم، وصرف الأموال عليهم، وتخفيف الضرائب عنهم، وقد أشارت بعض المصادر لمثل هذه المجالس للعلماء والشعراء وعقد اللقاءات الأسبوعية معهم، والمناسبات الكبرى(٥).

---

(١) العبدري، محمد بن محمد بن علي (ت: ٧٠٠ه). **رحلة العبدري**، (تحقيق: علي إبراهيم كردي)، دار سعد الدين، ٢٠٠٥م، ص١١٦.

(٢) العبدري، رحلة العبدري، ص١٦٨.

(٣) العيادي، محسن هارون، **ابن سعيد الأندلسي حياته وتراثه الفكري والأدبي**، مكتبة النهضة، القاهرة، ط١، د.ت ، ص١٣١.

(٤) التجاني، رحلة التجاني، ص٢٧٦.

(٥) التجاني، رحلة التجاني، ص٢٥٦؛ البلوي، تاج المفرق في تحلية علماء المشرق، ص١١٣؛ ابن خلدون، مقدمة ابن خلدون (ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر)، ص٤٠.

كما حرص السلطان محمد المسعود بالله بن المتوكل على الله عثمان صاحب تونس عندما كان في ولاية العهد، على تقريب العلماء والأدباء والشعراء، فأصبح مجلسه من المجالس الأدبية المشهورة بوقتها(١).

كما اهتم السلاطين الحفصيون بإنشاء الزوايا والأربطة، والتي ساهمت بنشر العلم حيث أنها تعتبر من المؤسسات العلمية المهمة في إفريقية خاصة، إضافة لمكانتها الدينية، وكثيراً ما كان يقصدها طلاب العلم لتلقي العلم(٢)، وقد تكللت جهود سلاطين بنو حفص بإنشاء عدد من الزوايا في عدد من المدن كتونس، وسوسة، وقسنطينة، وكانت بالكثرة التي جعلت الحسن الوزان يشير إلى ذلك، ويعلل هذه الكثرة في انتشار الزوايا لكبر مساحة أفريقية، وكثرة سكانها وكثرة مواردها(٣).

ومن أشهر الزوايا التي بناءها سلطان بنو حفص زاوية عين زميت والتي تبعد قرابة ثلاثين ميلاً من باجة، وحولها دور لا ينقصها إلا السقوف ولها أبراج قائمة(٤)، كما كانت هذه الزوايا تخدم المسافرون والمغتربين وبعضها تكون ذات مطل جميل على بساتين ومساحات خضراء طبيعية(٥).

خدماتهم في المجال العمراني والخدمات العامة:

شهدت منطقة إفريقية في عهد سلطان بنو حفص حركة واسعة ومتقدمة في ميدان العمران والبناء للمنشآت العامة كالمساجد، والفنادق والقناطر والحمامات والحدائق والمتنزهات، والزوايا والأربطة، وكل ما يسهل سبل معيشة السكان، وتكفي حاجاتهم وتلبي رغباتهم، فكان الاهتمام ببناء المساجد وعمارتها عملاً بقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ فَعَسَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ أَن يَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ﴾ [التوبة: ١٨] وامتثالاً لما جاء في السنة المطهرة وقول الرسول ﷺ « **من بنى مسجداً يبتغي به**

(١) الظاهري، زين الدين عبدالباسط خليل بن شاهين الحنفي. **الروض الباسم في حوادث العمر والتراجم**، (تحقيق: عمر عبدالسلام تدمري)، المكتبة العصرية، بيروت، ٢٠١٤م ، ص٢٠٠-٢١١-٢٢١.

(٢) ابن الوزان الفارسي، وصف إفريقيا، ص٥٠؛ أبو مصطفى، كمال السيد، **جوانب من الحياة الاجتماعية والاقتصادية والدينية والعلمية في المغرب الإسلامي من خلال نوازل وفتاوى المعيار المعرب للونشريسي**، مركز الإسكندرية للكتب، الإسكندرية، ١٩٩٦م ، ص١١٧.

(٣) ابن الوزان الفارسي، وصف إفريقيا، ص٦٥-٧٦-٨٣.

(٤) ابن الوزان الفارسي، وصف إفريقيا، ص٦٧.

(٥) الظاهري، زين، الروض الباسم في حوادث العمر والتراجم، ص٢٢٧.

وجه الله بنى الله له مثله في الجنة»[١] ، وحيث أن بناء المساجد وعمارتها والاهتمام بها ينسجم مع السياسة الدينية لسلاطين بنو حفص، فكانت آثارهم في ذلك شاهد على هذه السياسة، ومن أهم تلك المنجزات جامع القصبة، والذي بناه السلطان أبو زكريا الحفصي الأول كما سبق ذكره، كما أنشأ مصلى بناه خارج "باب المنارة"، وجعل له أبراجاً وشرائف كأنه بلد صغير، وقد قدر الزركشي مساحته بمساحة مدينة بنزرت في ذلك الوقت[٢]، كما كانت للسلطان الحفصي أبو زكريا الأول جهود في مجال البناء والعمران، مما يدل على حرصه على بناء الدولة وعمارتها رغم انشغاله بالحروب والأحداث الخارجية، ولكنها لم تشغله عن الإنشاء والتعمير.

وتوالى سلاطين بنو حفص في بناء الجوامع والمساجد في مدن إفريقية وأشهرها جامع الزيتونة الذي أمر ببناءه السلطان أبو عبدالله محمد المستنصر بالله في العاصمة الحفصية في تونس، وقال عنه العبدري: "من أحسن الجوامع وأتقنها، وأكثرها إشرافاً، ودائره مسقف ووسطه قد نصبت فيه أعمدة من خشب على قدر ارتفاع الجدر، وشدت إليها حبال متينة في حلق حديد مثبتة فيها، وفي السقوف شداً محكماً، فإذا كان يوم الجمعة نشرت عليها شقق الكتان المطبقة الموصلة حتى تظلل جميع الفضاء، ذلك دأبهم فيها حتى ينصرم فصل الصيف"[٣].

كما كان للسلاطين الحفصيون جهود في بناء الفنادق في إفريقية على امتداد الطرق التجارية، والغرض منها إيواء المسافرين من التجارة والغرباء والوافدين على البلاد، فانتشرت هذه الفنادق في المدن الساحلية وبعض المدن الداخلية المهمة مثل قسطنطينية التي تعتمد على التجارة الداخلية، وهذه الفنادق غالباً ما تقام خارج المدن، فعلى سبيل المثال في تونس كان مجمع الفنادق يقع خارج أسوار المدينة، ويرتادها المسافرون من مختلفي الجنسيات من شتى البلدان[٤]، ويشير أحد المؤرخين لفندق "الركادو" الذي يرتاده مختلف التجار من الأتراك والتونسيون والإسكندريون وسكان البلاد المحليون، وقد سمع لهم بنو حفص بممارسة نشاطهم

(١) البخاري، محمد بن إسماعيل بن إبراهيم الجعفي (ت: ٢٥٦ه). **صحيح البخاري**، دار الفكر، بيروت،١٩٨١م، ، كتاب الصلاة، باب من بنى مسجداً ، حديث ٤٥٠، ص١١٦؛ ابن ماجة، أبو عبدالله محمد بن يزيد القزويني (ت: ٢٣٧ه). **سنن ابن ماجة**، دار الفكر، بيروت، ١٩٨٢م ، حديث ٢٧٠، ص١٢٠٦.

(٢) الزركشي، تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية، ص٢٧-٢٨.

(٣) العبدري، رحلة العبدري، ص٧٤.

(٤) ابن الوزان الفارسي، وصف إفريقيا، ص٧٤.

المهني مع ضمان أمنهم، وأمن سفنهم، وحرية تنقلهم ببضاعتهم في السوق الداخلية، وذلك اتباعاً للسلطة وحفظاً للعهود المبرمة بين التجار(١)..

كما كان إنشاء القناطر(٢) من أولويات سلاطين بنو حفص وكان بإنشائها خدمة للناس حيث أنها تربط أطراف المدينة، وقد أشار الرحالة العبدري إلى جهود السلاطين في ترميم بعض القناطر بعد الدمار الذي طالها خلال الحروب والمعارك، ففي سنة ٦٦٦هـ/ ١٢٦٧م، قام السلطان الحفصي بعمل جليل النفع في إصلاح "الخنايا" وهي قنطرة مشهورة في تونس واستغرق العمل في إصلاحها عدة سنوات(٣).

من الخدمات الجليلة والجهود العظيمة التي عمل بها سلاطين بنو حفص على تقديمها للناس هو جلب المياه وتوفيرها للناس في المدن ليستفيد منها المسافرين والفقراء وكافة المارة، منها ما أنشاءه السلطان أبو العباس أحمد الحفصي لسبالة الماء في بطحاء ابن مردوم داخل مدينة تونس(٤)، وأيضاً جهود السلطان الحفصي أبو فارس عبدالعزيز ببناء "الماجل الكبير" بمصلى العيدين خارج باب سيدي عبدالله، وهو بناء ضخم، أخرج منها سبيلين للماء، أحدهما لشرب العطاش، والآخر مورد لمن يرد بقربه، كما بنى سقاية للماء خارج باب الحديد من تونس لتسقي الناس والدواب، وفي ذلك يقول الزركشي: "إنه من الأبنية الضخمة – يقصد الماجل- التي قلُ إن يبنى مثلها، وأخرج منها سبيلين للماء، أحدهما لشرب العطاش من جعب النحاس يجذب منه الماء بالنفس، والآخر مورد لمن يرده بقربه أو غيرهما"(٥).

ومن الخدمات التي قدمها سلاطين بنو حفص للرعية بناء الساقية في قصر السلطان وجناته والتي تسقي جزء من أرضه وجزءً يسيراً تم تحويله إلى ساقية جامع الزيتونة، حيث يتسرب منها الماء في أنابيب من رصاصي يستقي منها الغرباء، ومن ليس في دار ماء يشرب منه وكذلك تحفيفاً على الناس من كثرة الازدحام على موارد المياه(٦).

---

(١) ابن الوزان الفارسي، وصف إفريقيا، ص٩٥.

(٢) **القناطر:** جمع قنطرة، وهي جسر مقوس مبني فوق النهر يعبر عليه الناس. السباعي، من روائع حضارتنا، ص٧٦٢).

(٣) العبدري، رحلة العبدري، ص٩٥.

(٤) ابن القنفذ، الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية، ص١٧٨.

(٥) وقد اندثر هذا الماجل وأصبح مكانه منطقة سكنية. الزركشي، تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية، ص١١٦.

(٦) العبدري، رحلة العبدري، ص١١٠.

وامتد اهتمام سلاطين بنو حفص بإنشاء الحمامات والتي انتشرت في شتى المدن الأفريقية الواقعة تحت سلطانهم، والتي امتازت بحسن التنظيم والإبداع والاهتمام[١] (التجاني، ١٩٨١م، ص٢٣٧)، مما جعلها محط أنظار الزائرين إليها حيث قال ابن الوزان عنها وعن جمالها وحسن تنظيمها مما جعله يقارنها بحمامات مدينة فاس: "الحمامات متعددة وهي أكثر تنسيقاً وتسهيلاً من حمامات فاس، إلا أنها أقل منها حسناً وسعة"[٢].

وقد حرص سلاطين بنو حفص على اختيار المكان المناسب لإنشاء هذه الحمامات فتكون على منابع العيون الباردة والساخنة، وتوزيع بناءها في عدة مدن مثل تونس وطرابلس وبجاية وتوزور وغيرها من المدن[٣].

وكجزء من مهام الدولة في تقديم الخدمات العامة لرعاياها، فقد اعتنت الدولة الحفصية بالأماكن الترفيهية والمتنزهات والحدائق لتكون ملاذاً لرعاياهم للترويح عنهم وقضاء أوقات ممتعة فيها، فكانت المتنزهات والحدائق وزراعة الأراضي من الأمور التي اهتم فيها سلاطين بنو حفص لتكون متنزه لحشمهم، وفرجة لحرمهم، وتكون مواقيت خروجهم إليها في كل جمعة، وتكون لاحتفالاتهم ومناسباتهم المهمة [٤]، ومن أشهر وأجمل هذه الآثار تعود لعهد السلطان الحفصي أبو عبدالله محمد المستنصر حيث جعل في بعض البساتين المحيطة بقصره جابية تشبه بحيرة، وأجرى في مائها القوارب، وهي تعرف بـ "حلبية الحفاصة"، قرب أريانة، بها ما يقارب ستمائة شجرة من الزيتون، وقد بلغت الفخامة والجمال في بستانه المعروف بأبي فهر مبلغاً عظيماً[٥]، وقد وصفه ابن خلدون وصفاً دقيقاً رائع فقال: "يشتمل على جنات معروشات، وغير معروشات، أغترس فيها شجرة كل فاكهة من أصناف التين، والرمان، والنخيل، والأعناب، وسائر الفواكه وأصناف الشجر البري، وسمي دوح هذه بالشعراء، واتخذ وسطها البساتين، والرياض بالمصانع والحوائز وشجر النور، والنزه من الليم، والتاريخ، والعرو، والريحان، وشجر الياسمين، والخيري، والنيلوفر، وأمثاله وجعل وسط هذه الرياض روضاً فسيح الساحة، وصنع فيها للماء حائراً من عداد البحور، جلب إليه الماء في القناة القديمة

(١) التجاني، رحلة التجاني، ص٢٣٧.
(٢) ابن الوزان الفارسي، وصف إفريقيا، ص٧٧.
(٣) التجاني، رحلة التجاني، ص١٥٨، ٢٣٨؛ ابن الوزان الفارسي، وصف إفريقيا، ص٥٠.
(٤) العمري، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، ص١٥٠.
(٥) ابن أبي الضياف، أبو العباس أحمد بن عمر العوني (ت:١٢٩١ه). **إتحاف أهل الزمان بإخبار ملوك تونس وعهد الأمان**، (تحقيق: لجنة من كتابة الدولة للشؤون الثقافية والأخبار)، الدار التونسية للنشر، تونس، د.ط، د.ت ، ص٦٦-٦٧.

كانت ما بين عيون زغوان وقرطاجنة تسلك بطن الأرض في أماكن، وتركب البناء العادي ذا الهياكل المائلة والقسي القائمة على الأرجل الضخمة في أخرى، فعطف هذه القناة من أقرب السمات إلى هذه البستان"(١).

وقد كانت هذه المنتزهات والحدائق الغناء في بداية الأمر مقتصرة الزيارة فيها على السلطان وأسرته وحاشيته وزوار البلاط السلاطيني، ولكن نجد أنه بعد ذلك وتحديداً في بداية القرن العاشر فتحت للتجار ولطلاب العلم في منتزه رأس الطابية حيث كان مدعواً هناك فيقول متعجباً ومعجباً بجماله: "فرأيت هذا الجنان في غاية الاتقان والحسن، وبه مكان كالقصر برسم السلطان ثلاث طباق، وعظيم إلى الغاية أنيق البناء فرج نزه بناء ملوكي على صفة غربية وهيئة عجيبة وبه لبركة ماء عظيمة كبيرة جداً، وبشجر يقال له المحتشمة برسم جريان الماء فيه نقر في حجر كالرخام يدخل الماء إليه من جهة، ثم يحول في حولات غريبة في وضاع محوره نقرأ في هذه البلاطة على هيئة دائرة واسعة متداخلة النقور بديعة الصفات، تسر الناظر، وتشرح الخاطر، وهي من النوادر يحول فيها الماء كأنه جفن متعاكس الجولات عدة معاكسات غريبة الهيئات"(٢).

حرص سلاطين بنو حفص على بناء الزوايا والأربطة على امتداد المدن الساحلية لدولتهم، وقد ساهم انتشارها في مواجهة التقلبات السياسية في إفريقية، وأيضاً توفير البيئة المناسبة للعبادة وقت السلم، كما أنها أدت هذه الرباطات دورها الأساسي، ومهمتها هي المراقبة والحراسة لتفادي الأخطار والهجمات الخارجية، كما كانت هذه الأربطة والزوايا تقوم بعمل اجتماعي جليل حيث يجتمع فيها الفقراء، أو المارة المسافرين والحجاج كذلك، ويقدم لهم الطعام والزاد وما يلزمهم لإكمال سفرهم ورحلتهم الدينية(٣).

ومن أشهر الأربطة وأقدمها رباط المنستير، وهناك رباط سوسة ورباط نقطة وطنية بمدينة صفاقس، وقد ورد رباط طينة ورباط نقطة في رحلة التجاني، فقال عنهما: "وهما قصران عامران، ويقال أن جماعة من أصحاب (معروف الكرخي)

(١) ابن خلدون، مقدمة ابن خلدون (ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر)، ص ٤٠٤-٤٠٦.
(٢) الظاهري، الروض الباسم في حوادث العمر والتراجم، ص١٩١، ١٩٩.
(٣) ابن الوزان الفارسي، وصف إفريقيا، ص١٩٣؛ العبدري، رحلة العبدري، ص٧٨٧؛ الزركشي، تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية، ص١١٦.

رابطوا بقصر نقطة هذا وماتوا به فقبورهم هناك"[١] ، وقد كانت هذه الرباطات عامرة بالعلماء وشيوخ الصوفية والمرابطين، وكان بعضهم يسكنها مع أهله[٢].

وكان من أشهر ما قام به السلطان الحفصي أبو فارس عبدالعزيز هو بناؤه الزاوية التي كانت تقع خارج باب البحر، بعد أن كانت ماخوراً يدرّ على خزانة الدولة عشرة آلاف دينار، فحول ذلك الماخور إلى مكان تقام فيه الصلاة وتدريس العلم وقراءة القرآن وسكنى للطلبة، ولم يكتف بالإنشاء فقط بل نجده يوقف الأوقاف الدائمة عليها ليكفيها ويسد احتياجاتها، وجعل فيها سماطاً جارياً للمقيمين فيها والواردين عليها[٣].

خدماتهم في الجانب الاقتصادي:

نال الجانب الاقتصادي نصباً كبيراً من اهتمام وعناية سلاطين بنو حفص، وذلك لارتباطه بمعيشة الناس وأساس استقرار حالة البلاد الاقتصادية، وقد تمت الإشارة إلى أهم انجازات السلطان أبو زكريا الحفصي بأن أيامه كانت خير الأيام وأكثرها سعادة، وأدّرها أرزقاً، وأكثرها أفراحاً، ونام الناس معه على مهاد العافية، وأكثر الغراسات، فقيل أن دولته جمعت من رؤساء العلماء، وأهل الرئاسات من الموحدين، وفحول الشعراء، وجباة الأموال، وقد زخرت دولته بعدد كبير من الصناع وأصحاب المعارف وأرباب البصر ما لم يكن عند غيره، وكان مجالس طلبة العلم، ويشاركهم أحسن مشاركة من غير مماراة ، ولا إظهار إياله على أحد منهم [٤]، وفي أيامه ازدهرت خزينة الدولة بأموالاً لا تحصى: "... جمع بعدله وسياسته أموالاً لا تحصى إلا بالبيت، والبيت عبارة عن ألف ألف وذلك مائة ألف عشر مرات"[٥].

ورغم ذلك فقد تعرضت الدولة الحفصية خلال فترة حكم سلاطينها لبعض المشاكل الاقتصادية الداخلية منها عدم صلاحية بعض الأراضي لإنتاج المحاصيل الزراعية[٦]، وقلة عدد الأيدي العاملة في المجال الزراعي وإعراض المزارعين عن الزراعة بسبب إثقال كواهلهم بضرائب من قبل بعض السلاطين، أو من لهم يد

(١) التجاني، رحلة التجاني، ص٦٧.
(٢) الزركشي، تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية، ص١١٦.
(٣) ابن الشماع، الأدلة البينية النورانية في مفاخر الدولة الحفصية ، ص١٤٥؛ الزركشي، تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية، ص١١٦.
(٤) ابن القنفذ، الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية، ص١١٣.
(٥) ابن القنفذ، الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية، ص١١٤.
(٦) التجاني، رحلة التجاني، ص١٨٦.

عليا[١]، كما كثرت عمليات السطو وسرقة المحاصيل الزراعية والاعتداء على المزارعين مما تسبب في فساد وإتلاف المزروعات[٢].

وعمل سلاطين بنو حفص على حل هذه المشاكل ومعالجتها، والتخفيف منها فنجد السلطان أبو فارس عبدالعزيز يلغي الكثير من المكوس والضرائب التي كانت مفروضة على الأسواق، وثقل كاهل البائع والمشتري، وإذا اختلفت مقادير تلك المكوس عند بعض المؤرخين فإنها تتجاوز الثلاثين ألف دينار على كل حال، ويشير الزركشي إلى ذلك بقوله: "... ومنها ما ترك من المجابي لوجه الله سبحانه فمنها محبي سوق الرهادنة، وكان قدره ثلاثة آلاف دينار ذهباً في كل عام، ومجبي فندق الحضرة وقدره ثلاثة آلاف دينار ذهباً، ومجبي سوق العطارين وقدره مائتان وخمسون ديناراً ذهباً... الخ "[٣].

أيضاً حرص سلاطين بنو حفص على انعاش التجارة فقاموا بتوفير الفنادق والمساكن للتجار الوافدين على أطراف المدن[٤]، كما أدرك سلاطين بنو حفص الأهمية الاقتصادية للموانئ التجارية فقاموا بتهيئتها لاستقبال السفن التجارية المحملة بالبضائع وشحنها للتصدير من إفريقية لباقي الموانئ التجارية عن طريق البحر[٥].. ونظراً لحاجة سكان إفريقيا لاستهلاك القمح والحبوب والغذاء، وتم بناء الطواحين التي تتحرك عن طريق المياه[٦]، كما عمل سلاطين بنو حفص على رفع حجم الإنتاج الزراعي والصناعي في أفريقية، وذلك من خلال وضع الأنظمة التي تساعد في تطوير وإنشاء العديد من الصفقات المربحة لصالح البلاد رغم الظروف والأحوال السياسية المضطربة بين فترة وأخرى.

ومن أجل تنظيم عملية التجارة الداخلية، فرضت على التجار في الأسواق الداخلية الأنظمة والقوانين، وكذلك مراقبة الأسواق منعاً للغش في المكابيل والموازين، ولم تكن تلك الرقابة خاصة بالمسلمين، بل جميع من يعمل بالتجارة في إفريقية من جميع الجنسيات والديانات، كما تميزت الأسواق بجسن التنظيم والترتيب والإطلالة الحسنة[٧].

(١) ابن الوزان الفارسي، وصف إفريقيا، ص٨٣.
(٢) التجاني، رحلة التجاني، ص٦٦.
(٣) الزركشي، تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية، ص١١٦.
(٤) ابن الوزان الفارسي، وصف إفريقيا، ص٥٠.
(٥) التجاني، رحلة التجاني، ص٢٤٦؛ البلوي، تاج المفرق في تحلية علماء المشرق، ص٩٣.
(٦) ابن الوزان الفارسي، وصف إفريقيا، ص٦٦.
(٧) ابن الوزان الفارسي، وصف إفريقيا، ص٥٠، ٨٣.

أما في مجال التجارة الخارجية، فقد حرص سلاطين بنو حفص على الاهتمام بالموانئ التجارية في المناطق الساحلية كميناء طرابلس وميناء سكيكيدة[١]، والتي تخرج منها أغلب السفن محملة بالبضائع، والمنتجات الأفريقية لموانئ البحر الأبيض المتوسط، ومن صور اهتمام سلاطين بنو حفص بهذه الموانئ العمل على توفير مساكن للتجار والوافدين إليها، كذلك تأمين أماكن ومخازن لحفظ البضائع والسلع، وذلك ليسهل ممارسة التجارة داخلها، كما حصل في مدينة سكيكيدة حيث أمر السلطان الحفصي ببناء المنازل والمخازن للتجار القادمين من مدينة جنوة الإيطالية[٢]، حتى يتيسر لهم التجارة بكل راحة وسهولة[٣].

ومن الأسباب التي ساعدت على ازدهار الحياة الاقتصادية في إفريقية هو استقبال الخبرات التجارية الخارجية والتجار، وإتاحة الفرصة لهم بالعمل في مدى إفريقية، مما ساهم في تنوع منتجات السوق التجارية في إفريقية، فنجد منتجات الحرير والعطور ، وهناك الخياطين والعطارين والسراجين والفاكهايين، واللبانين، والخبازين والقصابين الذين يذبحون الذابح وبائعي الأسمدة[٤].

ونتيجة لتوسع التجارة الداخلية والخارجية توسع استعمال العملات، وكانت العملة المتداولة في البلاد الأفريقية في عهد سلاطين بنو حفص الدينار والدرهم، إذ كان وزن الدينار أربعة وعشرين قيراطاً من الذهب، وهو مستدير الشكل، أما الدرهم فيزن ستة قراريط من نوع الفضة وهي مربع الشكل، ولم تكن هي فقط المتداولة، بل كان هناك عملات أصغر لتسهيل المعاملات التجارية، وتصنع في جبال بجاية[٥]، ونستنتج من هذا التنوع في استخدام العملة على الرخاء الاقتصادي الذي كانت تنعم به إفريقية في عهد سلاطين بنو حفص، ومما ساعد على ذلك

---

(١) **سكيكيدة**: هي مدينة بناها الرومان تقع على ساحل البحر الأبيض المتوسط، تبعد عن مدينة قسطنطينية قرابة ٣٥ ميلاً، وحالياً تقع شرق الشريط الساحلي الجزائري على امتداد ١٤٠ كلم تقريباً، وهي محصورة بين البحر الأبيض المتوسط وولاية عناية وولاية قسطنطينية . ابن الوزان الفارسي، وصف إفريقيا، ص٥٥.

(٢) **جنوة:** مدينة قديمة أزلية البناء على مقربة من نهر صغير أهلها تجار وبحارة، تقع شمال غرب إيطاليا على الساحل الشمالي للبحر الأبيض المتوسط. الإدريسي، أبو عبدالله الشريف محمد بن عبدالله السبتي(ت: ٥٤٨ه). **نزهة المشتاق في اختراق الآفاق**، (نشره كوريلي وآخرون)، معهد الدراسات الشرقية، ١٩٧٢م، ص٧٤٩-٧٥٠).

(٣) ابن الوزان الفارسي، وصف إفريقيا، ص٥٥.

(٤) ابن الوزان الفارسي، وصف إفريقيا، ص٧٥؛ التجاني، رحلة التجاني، ص٢٤٦؛ البلوي، تاج المفرق في تحلية علماء المشرق، ص٧٤، ٩٠، ٢٣٨.

(٥) ابن الوزان الفارسي، وصف إفريقيا، ص١٠٢.

الأنظمة والقوانين التي وضعها حكام أفريقية، وكذلك الاهتمام بالإنشاء والتطوير وعقد الصفقات التجارية المربحة للبلاد.

خدماتهم في الإدارة الداخلية للدولة:

أعطى سلاطين بنو حفص اهتماماً كبيراً لتنظيم الإدارة الداخلية لدولتهم وشملت تحقيق العدالة الاجتماعية بين الناس والمساواة وإنصاف المظلوم والنظر في قضايا المظالم، ومنع الغش والتدليس بفرض نظام الحسبة في الأسواق والأماكن العامة، كما وضعت أنظمة إدارية للتنظيم المالي الداخلي للبلاد، وتنظيم صرف وانفاق الأموال على الوجهة المطلوب والجهة المستحقة لها.

نجد أن نظام البريد عُرف عند سلاطين بنو حفص في إفريقية كوسيلة سريعة لتوصيل الأخبار إلى الولاة، والأوامر السلطانية لموظفي الدولة، كما أن البريد ساهم بشكل كبير في تلقي السلاطين لرسائل عاجلة من ولاة الأقاليم في كل ما يحدث في ولاياتهم، وبذلك يكون السلطان على اطلاع واتصال دائم مع الولاة والموظفين فيما يجري في شتى أنحاء أفريقية(١).

وفي مجال القضاء والنظر فيه نجد أن سلاطين بنو حفص كان لهم اهتمام كبير بهذا الجانب حيث حرصوا على تعيين الكثير من القضاة العدول، واجتهدوا في اختيار من تتوفر فيه صفات القاضي، فلم يكن تعيين القضاة الشرعيين عشوائياً، بل وفق أنظمة واختبارات دقيقة(٢)، كما أن السلاطين الحفصين كثيراً ما يستعينون بالقضاة الوافدين على بلادهم لعدولهم، ولتعمقهم عن غيرهم بأصول الدين والبلاغة والكتابة(٣).

كما وجد نظام الحسبة إلى جانب القضاء وهي من الوظائف الدينية المهمة، وتقوم على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وقد حرص سلاطين بنو حفص على تعيين رجال الحسبة للمحافظة على نظام الأمن ومحاربة الفساد بشتى صوره

(١) التجاني، رحلة التجاني، ص٢٤٦؛ البلوي، تاج المفرق في تحلية علماء المشرق، ص١٦٩.

(٢) ابن رشيد، أبو عبدالله محمد بن عمر النهري (ت:٧٢١ه). **ملء العيبة بما جمع بطول الغيبة في الوجهة الوجيهة إلى الحرمين مكة وطيبة**، (تونس عند الورود)، (تحقيق: محمد الحبيب ابن الخوجة)، دار النشر التونسية، تونس، ١٩٨٢م، ص٨٣-٨٤.

(٣) ونذكر على سبيل المثال لا الحصر: ابن الغماز البلنسي، نزيل تونس وقاضي الجماعة بها، وقاضي الأنكحة أبو العباس أحمد بن عبدالله بن الإمام الجزائري، والفقيه القاضي عبدالحميد بن أبي البركات بن أبي الدنيا الصدفي من طرابلس، وابن حبيش قاضي الأنكحة من مرسية. ابن رشيد، ملء العيبة بما جمع بطول الغيبة في الوجهة الوجيهة إلى الحرمين مكة وطيبة، ص٣٢٩-٣٠٣-٤٠٣.

وأشكاله في الأسواق لمنع الغش وفحص الأوزان والمكاييل، والنظر في معاملات التجار، كما اهتموا بأمور الجباية وتعين الأشخاص المناسبين لها ويكون مسؤولاً متخصصاً وله داراً للمحاسبة، وكان يطلق على من يتولى أمور الجباية وزير المال أو صاحب الأشغال، وكانت من مهامهم محاسبة المتخلفين عن دفع الضرائب والجزية على مختلف أنواعها ويكون له عمال في جميع المدن(١).

كما حرص سلطان بنو حفص على نشر الأمن الداخلي في البلاد فيتم النظر في الشكاوي كما فرضت العقوبات والغرامات على كل المخالفين، وقد تتجاوز العقوبة إلى السجن(٢).

الخاتمة

ومن العرض السابق يتضح لنا ما يلي:

- أظهرت الدراسة اهتمام سلاطين بنو حفص على تقديم الخدمات العامة لرعاياهم في عدة جوانب مهمة، وهي نابعة من شعورهم بالمسؤولية أزاء رعايهم من أجل توفير البيئة المعيشية الكريمة لهم.
- برزت جهود سلاطين بنو حفص في المجال العلمي ورفع مستوى التعليم في بلادهم من عدة جوانب، كإنشاء المدارس في مختلف المدن الإفريقية، والاهتمام بالمكتبات العامة، ومكتبات القصور، والعمل على مراقبة العمل فيها، والنظر في أمر الكتب الواردة إليها، أيضاً تشجيع العلماء باعتبارهم ثروة علمية للبلاد، كذلك تشجيعهم للهجرة الأندلسية من خارج البلاد له الأثر الكبير في الازدهار العلمي والحضاري، كذلك التشجيع على التأليف والتدوين فظهرت مؤلفات علمية قيمة في مناحي علمية عدة.
- أثبتت الدراسة شغف سلاطين بنو حفص بالجانب العمراني والإنشاء، فكانت جهودهم واضحة تجلت في بناء المساجد والفنادق والمدارس والقناطر والحمامات والزوايا والأربطة التي تخدم الإنسان، وتلبي حاجاته، كما اتضح من الدراسة أن الاهتمام بالرعية لم يكن مقتصراً على توفير الحاجات الأساسية للعيش الكريم، بل تجاوزها للاهتمام بالجانب الترفيهي والاجتماعي، كالاهتمام بالحدائق والمنتزهات والفنادق التي تخدم المسافرين من التجار وغيرهم.

(١) التجاني، رحلة التجاني، ص٣٢٣؛ العمري، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، ص١٥٠.
(٢) ابن الوزان الفارسي، وصف إفريقيا، ص٥٠-٨٠.

- حظي الجانب الاقتصادي باهتمام كبير من سلاطين بنو حفص لأهميته في الاستقرار الداخلي والسياسي للدولة، فكانت جهودهم في هذا الجانب عظيمة أثبتت قوة السلطان الحفصي، ومتابعته الدقيقة لكافة شؤون بلاده والعمل على إيجاد كل الحلول لكافة المشاكل والصعوبات، كما عملوا على تنظيم التجارة الداخلية والخارجية وتنشيطها وتأمين طرق التجارة البرية والبحرية، وتقديم كافة التسهيلات للتجار بالداخل والوافدين على إفريقية بهدف التجارة، فنتج عن ذلك ازدهار الأسواق الأفريقية بكافة السلع والبضائع والمنتجات الأجنبية.
- كان للجهود المبذولة من سلاطين بنو حفص في التنظيم الإداري الداخلي للدولة الأثر البارز في تحقيق العدالة الاجتماعية بين الناس، ونشر العدل والأمن حيث فرض نظام قضائي قوي ينظر باستمرار في القضايا والمشاكل، كما تم تفعيل دور الحسبة في الأسواق والأماكن لمنع الغش والتدليس وكل المخالفات والسلوكيات الاجتماعية الباطلة، مما ساعد على الإصلاح الداخلي وتأسيس مجتمع واعٍ مثقف يعمل على تطبيق مبادئ الدين الإسلامي الحنيف.

قائمة المصادر والمراجع

- القرآن الكريم.

المصادر العربية:

- الإدريسي، أبو عبدالله الشريف محمد بن عبدالله السبتي(ت: ٥٤٨ه). **نزهة المشتاق في اختراق الآفاق**، (نشره كوريلي وآخرون)، معهد الدراسات الشرقية، ١٩٧٢م.
- البخاري، محمد بن إسماعيل بن إبراهيم الجعفي (ت: ٢٥٦ه). **صحيح البخاري**، دار الفكر، بيروت،١٩٨١م .
- البغدادي، صفي الدين عبدالمؤمن بن الحق (ت: ٧٣٩ه). **مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع**، (تحقيق وتعليق: علي محمد البجاوي)، ط١، ١٣٧٣م.
- البلوي، خالد بن عيسى (ت: ٧٨٠ه). **تاج المفرق في تحلية علماء المشرق**، (تحقيق: الحسن محمد السائح)، صندوق إحياء التراث الإسلامي، المغرب، د.ط، د.ت.
- التجاني، أبو محمد عبدالله بن محمد بن إبراهيم (ت: ٧٠٨ه). **رحلة التجاني**، (تحقيق: حسين حسني عبدالوهاب)، الدار العربية، تونس، د.ط،١٩٨١م.
- ابن الخطيب، لسان الدين بن الخطيب (ت: ٧٧٦ه). **الإحاطة في أخبار غرناطة**، (تحقيق: محمد عبدالله عنان)، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط٣، د.ت.
- ابن خلدون، عبدالرحمن محمد الحضرمي (ت: ٨٠٨ه). **مقدمة ابن خلدون (ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر)**، (تحقيق: خليل شحادة ، وسهيل زكار) دار الفكر، لبنان،٢٠٠٠م.
- ابن أبي الدينار، أبو عبدالله محمد بن أبي القاسم الرعيني القيرواني (ت: ١٦٩٠م). **المؤنس في أخبار إفريقية وتونس**، مطبعة الدولة التونسية، ١٣٨٦هـ.
- ابن رشيد، أبو عبدالله محمد بن عمر النهري (ت:٧٢١ه). **ملء العيبة بما جمع بطول الغيبة في الوجهة الوجيهة إلى الحرمين مكة وطيبة**، (تونس عند الورود)، (تحقيق: محمد الحبيب ابن الخوجة)، دار النشر التونسية، تونس، ١٩٨٢م.
- زبيس، سليمان مصطفى. **مدينة تونس العتيقة**، المعهد القومي للآثار والفنون، تونس، ١٩٨١م.

- الزركشي، أبو عبدالله محمد بن إبراهيم اللؤلوي (ت: ٩٢٥ه). **تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية** (تحقيق: محمد مأضور)، المكتبة العتيقة، تونس، ط٢، ١٩٦٦م.
- ابن السراج، محمد بن محمد الأندلسي (ت: ٧٣٠ه). **الحلل السندسية في الأخبار التونسية**، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٨٤م.
- السيوطي، جلال الدين عبدالرحمن (ت: ٩١١ه). **بغية الوعاة في طبقات اللغوين والنجاة**، (تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم)، دار الفكر، د.ط، ١٩٧٩م.
- ابن الشماع، أبو عبدالله محمد بن أحمد (ت: ق ٩ه). **الأدلة البينية النوارنية في مفاخر الدولة الحفصية** (تحقيق: الطاهر محمد المعموري)، الدار العربية للكتاب، د.ط، ١٩٨٤م.
- الصفدي، صلاح الدين خليل بن أيبك (ت:٧٦٤ه). **الوافي بالوفيات**، (تحقيق: محمد بن عبيدالله)، المعهد الألماني للأبحاث الشرعية، بيروت، ٢٠٠٨م.
- ابن أبي الضياف، أبو العباس أحمد بن عمر العوني (ت:١٢٩١ه). **إتحاف أهل الزمان بإخبار ملوك تونس وعهد الأمان**، (تحقيق: لجنة من كتابة الدولة للشؤون الثقافية والأخبار)، الدار التونسية للنشر، تونس، د.ط، د.ت.
- الظاهري، زين الدين عبدالباسط خليل بن شاهين الحنفي. **الروض الباسم في حوادث العمر والتراجم**، (تحقيق: عمر عبدالسلام تدمري)، المكتبة العصرية، بيروت، ٢٠١٤م.
- العبدري، محمد بن محمد بن علي (ت: ٧٠٠ه). **رحلة العبدري**، (تحقيق: علي إبراهيم كردي)، دار سعد الدين، ٢٠٠٥م.
- العمري، أحمد بن يحيى بن فضل الله (ت:١٣٤٩ه). **مسالك الأبصار في ممالك الأمصار**، (تحقيق: حمزة أحمد عباس)، دار المكتبة الوطنية، أبو ظبي، ٢٠٠٣م.
- ابن القاضي، أحمد المكناسي (ت: ١٠٢٥ه). **درة الجمال في أسماء الرجال**، دار التراث، القاهرة، ط٧، د.ت.
- ابن القنفذ، أبو العباس أحمد ببن حسين بن علي (ت:٨١٠ه). **الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية**، (تحقيق: محمد الشاذلي، عبدالمجيد التركي)، تونس، د.ط، ١٩٦٨م.
- ابن ماجة، أبو عبدالله محمد بن يزيد القزويني (ت: ٢٣٧ه). **سنن ابن ماجة**، دار الفكر، بيروت، ١٩٨٢م.

- ابن الوزان الفارسي، الحسن بن محمد (ت: ٦٥٧ه). **وصف إفريقيا**، (تحقيق: محمد حجي، ومحمد الأخضر)، دار الغرب الإسلامي، لبنان، ١٩٨٣م.

المراجع العربية:

- برنشفيك، روبار، **تاريخ إفريقية في العهد الحفصي من القرن ١٣ إلى نهاية القرن ١٥م**، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط١، ١٩٨٨م.
- الخفاجي، كاظم عبد نتيش، وأخرون، الخدمات العامة لخلفاء الدولة الموحدية في المغرب والأندلس، **مجلة أبحاث البقو (العلوم الإنسانية)**، مج٣٩، ع٣، ٢٠١٤م، ص١٩٣ وما بعدها.
- سالم، السيد عبدالعزيز، **المغرب الكبير**، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٨١م.
- السباعي، مصطفى ، **من روائع حضارتنا**، دار السلام، القاهرة، ٢٠٠٥م.
- السحيباني، حمد بن صالح، **جهاد دولة بني مرين ضد النصارى بالأندلس**، منشورات الجمعية التاريخية، الرياض، ٢٠١١م.
- العامري، محمد الهادي ، **تاريخ المغرب العربي في سبعة قرون بين الازدهار والذبول من القرن السابع الهجري إلى ختام القرن الثالث عشر**، الشركة التونسية للتوزيع والنشر، د.ط، د.ت.
- العبادي، أحمد مختار، **دراسات في تاريخ المغرب والأندلس**، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، د.ط، د.ت.
- العيادي، محسن هارون، **ابن سعيد الأندلسي حياته وتراثه الفكري والأدبي**، مكتبة النهضة، القاهرة، ط١، د.ت.
- القحطاني، منى بنت حسين بن علي آل سهلان، **دراسة مصادر ابن الآبار في كتاب (الحلة السيرا) (٥٩٥-٦٥٨هـ/ ١١٩٩-١٢٦٠م)**، رسالة دكتوراه في التاريخ الإسلامي، كلية الآداب، جامعة الأميرة نورة بنت عبدالرحمن، ٢٠٠٩م.
- المسعودي، جميلة مبطي، **المظاهر الحضارية في عصر دولة بني حفص منذ قيامها (سنة ٦٢١هـ وحتى سنة ٨٩٣هـ)**، رسالة ماجستير، غير منشورة، قسم الدراسات العليا التاريخية والحضارية، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، جامعة أم القرى، ٢٠٠٠م.
- أبو مصطفى، كمال السيد، **جوانب من الحياة الاجتماعية والاقتصادية والدينية والعلمية في المغرب الإسلامي من خلال نوازل وفتاوى المعيار المعرب للونشريسي**، مركز الإسكندرية للكتب ، الإسكندرية، ١٩٩٦م.

- المطوي، محمد العمروسي، **السلطنة الحفصية تاريخها السياسي ودورها في المغرب الإسلامي**، دار الغرب الإسلامي، بيروت، د.ط، ١٩٨٦م.
- نواب، عواطف محمد يوسف، **الرحلات المغربية والأندلسية مصدر من مصادر تاريخ الحجاز في القرنين السابع والثامن الهجريين**، مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض، ١٩٩٦م.

ملحق رقم (١): أمراء وسلاطين بني حفص

١- أبو محمد عبدالواحد: ٦٣٠- ٦١٨هـ.
٢- أبو زكريا، يحيى : ٦٢٥-٦٧٥هـ/ ١٢٢٧-١٢٤٩م.
٣- محمد المستنصر بالله : ٦٤٧-٦٧٥هـ/ ١٢٤٩- ١٢٧٧م.
٤- أبو زكريا، يحيى الواثق: ٦٧٥-٦٧٨هـ/ ١٢٧٧-١٢٧٩م.
٥- أبو إسحاق إبراهيم الأول: ٦٧٨-٦٨٣هـ/ ١٢٧٩-١٢٨٤م.
٦- ابو حفص عمر الأول المستنصر: ٦٨٣-٦٩٤هـ/ ١٢٨٤-١٢٩٥م.
٧- ابو عبدالله محمد أبو عصيدة: ٦٩٧-٧٠٩هـ.
٨- أبو بكر بن يحيى (الشهيد – دام حكمه ١٧ يوماً) ٧٠٩-٧٠٩هـ/ ١٣٠٩-١٣٠٩م.
٩- أبو البقاء خالد الأول: ٧٠٩-٧١١هـ/ ١٣٠٩-١٣١١م.
١٠- المولى أبو يحيى زكريا، ابن اللحياني: ٧١١-٧١٧هـ.
١١- محمد أبو ضربة: ٧١٧-٧١٨هـ/ ١٣١٧-١٣١٨م (مات في مصر عند قلاوون).
١٢- أبو يحيى أبو بكر الثاني : ٧١٧-٧٤٧هـ/ ١٣١٨-١٣٤٦م.
١٣- أبو حفص عمر (الثاني): ٧٤٧هـ/ ١٣٤٦م.
١٤- أبو العباس أحمد (الأول): ٧٤٩هـ/ ١٣٤٨م.
١٥- أبو زيد عبدالرحمن- بقسنطينة-: ٧٤٩هـ/ ١٤٤٨م.
١٦- أبو عبدالله محمد المنصور ببجاية: ٧٤٩هـ/ ١٣٤٨م.
١٧- أبو العباس أحمد (الفضل)- المتوكل: ٧٤٧-٧٥٠هـ/ ١٣٤٩م.
١٨- أبو إسحاق إبراهيم الثاني المستنصر: ٧٥١-٧٧٠هـ/ ١٣٥٠-١٣٦٩م.
١٩- أبو البقاء خالد الثاني: ٧٧٠-٧٧٢هـ/ ١٣٦٩-١٣٧٠م.
٢٠- أبو العباس أحمد الأول: ٧٧٢-٧٩٦هـ/ ١٣٧٠-١٣٩٤م.
٢١- أبو فارس عبدالعزيز (ابن السلطان أحمد الأول): ٧٩٦-٨٣٧هـ.
٢٢- محمد المنتصر: ٨٣٧-٨٣٩هـ.(وهو حفيد أبي فارس عزوز وهو ابن أبي عبدالله محمد المنصور.
٢٣- أبو عمر عثمان: ٨٣٩-٨٩٣هـ/ ١٤٣٥-١٤٨٨م.
٢٤- أبو يحيى زكريا الثاني: ٨٩٣ـــ٨٩٩/ ١٤٨٨-١٤٩٣م. (ابن القنفذ، ١٩٦٨م؛ ابن خلدون، ٢٠٠٠م؛ الزركشي، ١٩٦٦م؛ ابن الشماع، ١٩٨٤م؛ ابن أبي الدينار، ١٣٨٦هـ؛ برنشفيك، ١٩٨٨م؛ المطوي، ١٩٨٦م).